أحاديث إصلاح القلوب

(٥٤)

تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ -تَصْدِيقًا لَهُ- ثُمَّ قَرَأَ: «**{وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}**»[(١)]. رواه مسلم.

إنَّ تعظيم الله جَلَّوَعَلَا من أعظم العبادات القلبيَّة، ومن أجلِّ وأشرف

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٦).

أعمال القلوب، فإنَّ القلب المعظِّم لله الَّذِي يَقْدُر ربَّه حقَّ قدره ويُعَظِّمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقَّ تعظيمه؛ هو ذلك القلبُ الَّذِي تحقَّق فلاحه ونجاحه وسعادته في دنياه وأخراه، وإذا كان القلب معظِّمًا لله عظَّم العبد شرع الله، وعظَّم دين الله، وعرف مكانة رسل الله، وعرف أحقيَّة الله عَزَّوَجَلَّ وحده بالذُّلِّ والخضوع والخشوع والانكسار.

ومن أسماء الله الحسنى «العظيم»، وهو جَلَّوَعَلَا عظيم في أسمائه، وعظيم في صفاته، وعظيم في أفعاله، وعظيم في كلامه، وعظيم في وحيه وشرعه وتنزيله، وهو جَلَّوَعَلَا عظيم مستحقٌّ من عباده أن يُعَظِّموه جَلَّوَعَلَا حقَّ تعظيمه، وأن يقدروه جَلَّوَعَلَا حقَّ قدره، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمر:٦٧].

ومعاني العظمةِ الدَّالِ عليها اسمُه العظيم نوعان:

أحدهما: يرجع إلى صفاته سبحانه، وأنَّ له جميعَ معاني العظمة والجلال؛ كالقوَّةِ، والعِزَّةِ، وكمال القدرة، وسعةِ العلمِ، وكمال المجد، وغيرها من أوصاف العظمة والكبرياء، وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكبرياءُ والعظمةُ الوصفان اللَّذان لا يُقادَرُ قَدْرُهُمَا، ولا يبلغُ العبادُ كنهَهما، قال الله تعالى في الحديث القُدُسيِّ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا**

مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[(١)]. رواه أحمد وأبو داود، وقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ، والمَلَكُوتِ، والكِبْرِيَاءِ، والعَظَمَةِ**»[(٢)]. رواه أحمد وأبو داود والنَّسائِيُّ.

النَّوع الثَّاني: أنَّه لا يستحقُّ أحدٌ التَّعظيم والتَّكبيرَ والإجلالَ والتَّمجيدَ غيرُه، فيستحقُّ على العباد أن يعظِّمُوه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبَّته والذُّلِّ له والخوفِ منه، ومن تعظيمه سبحانه أن يُطاعَ فلا يُعصَى، ويُذكَر فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكفَر، ومن تعظيمه وإجلاله أن يُخْضَعَ لأوامره وشرعه وحكمه، وأن لا يُعتَرَضَ على شيءٍ من خلقه أو على شيءٍ من شَرْعِه، ومن تعظيمه تعظيمُ ما عظَّمَهُ من زمانٍ ومكانٍ وأشخاصٍ وأعمالٍ، والعبادة روحُها تعظيمُ الباري وتكبيرُه.

وإنَّ من أعظم ما يعين العبد على تحقيق عبوديَّة التَّعظيم للرَّبِّ: أن يتفكَّر في مخلوقات الله العظيمة وآياته -جلَّ شأنه- الجسيمة الدَّالَّة على عظمة مبدعها وكمال خالقها وموجدها، يقول جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]. أي: لا تُعَظِّمونه حقَّ تعظيمه!! ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ

---

(١) رواه أحمد (٨٨٩٤)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٨٠)، وأبو داود (٨٧٣)، والنَّسائِيُّ (١٠٤٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٣-١٨].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر.

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ أي: خلقًا من بعد خلق، في بطن الأمِّ، ثمَّ في الرَّضاع، ثمَّ في سنِّ الطُّفوليَّة، ثمَّ التَّمييز، ثمَّ الشَّباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق، فالَّذِي انفرد بالخلق والتَّدبير البديع متعيِّنٌ أن يُفْرَد بالعبادة والتَّوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيهٌ لهم على الإقرار بالمعاد، وأنَّ الَّذِي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

واستدلَّ أيضًا عليهم بخلق السَّماوات الَّتِي هي أكبر من خلق النَّاس، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ أي: كلَّ سماء فوق الأخرى.

﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ لأهل الأرض ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾.

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشَّمس والقمر الدَّالَّة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرَّحيم، يستحقُّ أن يُعَظَّم ويُحَبَّ ويُعْبَد ويُخَاف ويُرْجَى.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ عند الموت ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ للبعث والنُّشور، فهو الَّذِي يملك الحياة والموت والنُّشور.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ [نوح: ١٩]، أي: مبسوطة مُهَيَّأة للانتفاع بها.

﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ٢٠]، فلولا أنَّه بسطها، لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسُّكون على ظهرها»[(١)]، فهي آيات عظام وشواهد جسام على عظمة المبدع وكمال الخالق سبحانه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، أي: براهين واضحات وشواهد بيِّنات ودلائل ساطعات على عظمة المبدع وكماله جلَّ شأنه، السَّموات في لطافتها وارتفاعها واتِّساعها وكواكبها السَّيَّارة والثَّوابت، والأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وأنهارها وقفارها وَوِهَادها وأشجارها وما فيها من المنافع المُتَنَوِّعة.

إنَّ تفَكُّر المؤمن وتأمُّله في آيات الله العظيمة ومخلوقاته الباهرة تهدي قلبه وتسوقه إلى تعظيم خالقه، إذا تفكَّر في هذه الأرض الَّتِي يمشي عليها والجبال المحيطة به يجد فيها عظمة تبهر القلوب، فإذا ما وسَّع النَّظر ونظر فيما هو أعظم من ذلك وتأمَّل في السَّماء المحيطة بالأرض تتضاءل عنده عظمة الأرض بالنِّسبة إلى عظمة السَّماء، ثمَّ إذا تأمَّل فيما هو أعظم وهو

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن للسِّعديِّ (ص٨٨٩).

السَّماوات السَّبع المحيطة بهذه الأرض يزداد الأمر عظمة، ثمَّ إذا تفكَّر في ذلك المخلوق العظيم الَّذِي قال الله عنه في أعظم آية في كتاب الله، قال جلَّ شأنه: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: أحاط بها فلم يضق عنها لعظم سعته؛ فتتضاءل عظمة السَّماوات وعظمة الأرض عند عظمة هذا المخلوق، ثمَّ تتضاءل هذه العظمة إذا تفكَّر العبد في النِّسبة بين عظمة الكرسيِّ وعظمة العرش المجيد أوسع المخلوقات وأعظمها، وقد ثبت عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «**مَا بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ، وَالْمَاءِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**»(١).

وثبت في المسند من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ**»(٢). هذه عظمة مخلوقات

---

(١) رواه الدَّارميُّ في الرَّد على الجهميَّة (٨١)، والطَّبرانيُّ في الكبير (٨٩٨٧).

(٢) رواه أبو بكر ابن أبي شيبة في العرش (٥٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٠٩).

تأخذ بالقلوب وتبهر العقول، فإذا تفكَّر العبد هذا التَّفكُّر العظيم عملًا بقول نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ**»(١). هداه هذا التَّفكُّر إلى عظمة الخالق جَلَّ وَعَلَا، فإذا كانت هذه المخلوقات بهذه العظمة فكيف الشَّأن بمبدعها!! وكيف الأمر بخالقها جلَّ شأنه وعظم سلطانه وكمل في أسمائه وصفاته، تبارك اسمه وتعالى جدُّه وبهرت حكمته وتمَّت نعمته وقامت على عباده حُجَّته والله أكبر كبيرًا.

وإذا عظَّمت القلوبُ اللهَ عَظُم في النَّفس شرعُ الله، وعظُمت حرماتُ الله، وصلحت أحوال العباد، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحجُّ:٣٢]، أي: أمارة بيِّنة ودلالة واضحة على تقوى قلب مَن كان كذلك لربِّه، ويقول جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحجُّ:٣٠].

إنَّ تعظيم الله جلَّ شأنه فرع عن المعرفة بالله جَلَّ وَعَلَا؛ فكُلَّما كان العبد أعظم معرفة بالله كان أشدَّ لله تعظيمًا وأشدَّ له إجلالًا وأعظمَ له مخافة وتحقيقًا لتقواه جلَّ شأنه، وإذا عظَّم القلبُ ربَّه خضع له سبحانه وانقاد لحكمه وامتثل أمره وذلَّ له بالمحبَّةِ والإجلال والتَّعظيم والخوف والرَّجاء وتوابعِ ذلك، ومنشأ صنوف الانحرافات وأنواع الأباطيل في النَّاس إنَّما هو

---

(١) رواه الطَّبرانِيُّ في الأوسط (٦٣١٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

من ضعف التَّعظيم لله أو انعدامه في القلوب.

وذكر الله بالتَّعظيم لجنابه سبحانه يملأ القلب تعظيمًا لله، وقد ثبت في الحديث أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»(١)، وكان يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** عَزَّوَجَلَّ»(٢)، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في ركوعه: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»، ويقول في سجوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»(٣)، ويقول ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»(٤). فذكر الله جَلَّوَعَلَا تعظيمًا له سبحانه وتكبيرًا وتوحيدًا وتقديسًا وتنزيهًا هو العمارة الحقيقيَّة للقلوب، وهو الشِّفاء لأمراضها، وهو الَّذِي تتحقَّق به تقوى العبدِ لرَبِّه جَلَّوَعَلَا والتَّعظيمُ لمولاه.

وليحذر العبد من الذُّنوب والمعاصي؛ فإنَّ من أضرارها على العبد أن تُضْعِف في قلبه التَّعظيم لله، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن عقوبات الذُّنوب: أنَّها تضعف في القلب تعظيم الرَّبِّ جلَّ جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد

---

(١) رواه أبو داود (٨٧٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) رواه مسلم (٤٧٩).

(٣) رواه مسلم (٧٧٢).

(٤) رواه البخاريُّ (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

ولا بُدَّ، شاء أم أبى، ولو تمكَّن وقارُ الله وعظمته في قلب العبد لما تجرَّأ على معاصيه، ورُبَّمَا اغترَّ المُغْتَرُّ، وقال: إنَّما يحملني على المعاصي حسن الرَّجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النَّفس؛ فإنَّ عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذُّنوب، والمتجرِّئون على معاصيه ما قدروا الله حقَّ قدره، وكيف يقدره حقَّ قدره، أو يُعَظِّمه ويُكَبِّره، ويرجو وقاره ويجلُّه؛ مَن يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحلَّ من قلبه تعظيم الله جلَّ جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقُّه»[(١)].

هذا والحياة دار ابتلاء وامتحان وإلى الرَّبِّ العظيم المنتهى وإليه الرُّجعى، ولا نجاة في ذلك اليوم إلَّا بالتَّعظيم لله والعمل بموجَبات هذا التَّعظيم، وأهل الإيمان في الدَّار الآخرة درجات عند الله بحسب حظِّ قلوبهم من التَّعظيم لله، وأمَّا مَن لا يؤمن بالله العظيم فليس له في تلك الدَّار إلَّا النَّار قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقَّة:٢٥-٣٢]،

(١) انظر: الدَّاء والدَّواء لابن القيِّم (ص٦٩).

والسَّبب في ذلك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقَّة:٣٣].

اللَّهُمَّ بك آمنَّا وعليك توكَّلنا وإليك أنبنا وبك خاصمننا ولا حول ولا قوَّة إلَّا بك، اللَّهُمَّ املأ قلوبنا محبَّة لك وتعظيمًا لجنابك ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين وأصلح لنا شأننا كلَّه لا إله إلَّا أنت، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.